البيئة اللغوية وتنقيتها من التلوث - المصطلحات نموذجاً

أ. د. حامد صادق قنيبي

ملخص البحث

يعرض البحث مسألة التلوث اللغوي من باب إشكالية التلقي لمصطلحات الإعلام المعاصر، وآثارها في تشكيل الهوُيَّة الحضارية.

ويقف البحث عند الخصوصية الحضارية للمصطلحات؛بشكل عام، ولكنه يتوقف عند بعض اللأمثلة المتداولة منها في وسائط الاتصال والميديا، وتأثيرها على الدراسات الأدبية والاجتماعية واللغوية المعاصرة التي تحمل في دلالاتها مضامين من التحيز الأيدلوجي المنحاز للحضارة الأوروبية في عصر التحولات المجتمعة وانعكاسات أطياف العولمة وهيمنتها الشمولية كما سيأتي بعد عتبات البحث :

العتبة الأولى :

اعتنى الإسلام بالإنسان عقيدةً وأخلاقاً وسلوكاً وفكراً وتطبيقاً . واجتهد الفقهاء من السلف الصالح برسم معالم الشخصية الإسلامية تحديد صفات الشخصية الإسلامية التي تستطيع حمل الرسالة وأداء الأمانة وتقديم النموذج التطبيقي للإسلام في كافة نواحي الحياة.

لقد تعهد الرسول (صلى الله عليه وسلم) الصحابة لاستيعاب وتطبيق القيم الإيمانية والأخلاقية والسلوكية ، وسنَّ الرسول (صلى الله عليه وسلم) للمسلمين دستورَ (منهجَ) التعامل مع القرآن المجيد والسنة والسيرة النبوية فضلاً عن القياس والاجتهاد لبناء الثقافة والحضارة الإسلامية ليظل الإسلام متجدداً في إطارٍ عالميٍّ إنسانيٍّ متغير .

العتبة الثانية :

اقتضى البحث التوطئة بمفاهيم عامَّة قبل استعراض بعض الأمثلة ، ومنها :

× **المصطلحات والمفاهيم ؛**

فالمصطلح : هو اللفظ أو الرمز اللّغوي الدال على مفهوم معين في علم أو فنٍ أو أيِّ عمل ذي طَبيعة خاصة . ويمكن تصنيف المصطلح بشكل عام إلى طائفتين :

أولاهما: مصطلحات علمية بحتة أو تطبيقية ،وهي حيادية المفهوم ، مثل : بوتاسيوم ، كيلو/متر تلفاز ، مذياع ، قناة ، ملتميديا ... حجر ، ماء ، نبات ، دواء .... ونحوها .

(وهذا النوع من المصطلحات ذو شيوع عالمي تراكمي مشترك بين جميع اللغات والأمم)

ثانيهما: مصطلحات ليست حيادية، وهي ذات خلفية حضارية وموقفها من الأنا و الآخر: (منحازة إليه أو عنه) وإن مصطلحاتها وألفاظها وتراكيب جملها تحملها لغتها الخاصة إذ تدل على شعب ما أو طائفة أو أمة دون سواها في الأغلب الأعم ، وربما يحدث التوافق في بعض الجزئيات مع الآخر ولكن تظل الخلفيات الحضارية قائمة مثل الزكاة ، الشهادتان ، ليلة القدر ، الإسراء ... ونحوها (١).

××إن عدم التَّعرف على الظروف التاريخية والإجتماعية ومواقع كل منها في سياق الاتصال اللغوي أو الأعلام سواء في العبادة أو في مجالها أو الحياة المدنية أو طلب العلم والتعلم . وإنَّ تعميم المعتقدات والمفاهيم الإعلامية في طائفة النوع الثاني من المصطلحات الحضارية والإنسانية في العلوم الاجتماعية والإنسانية من مجتمع لآخر ومن حضارة لأخرى دون الأخذ بعين الاعتبار لخصوصيات كل حضارة ومعتقداتها يؤدي في الغالب إلى تشويش المفاهيم وتلوثها ، وينتج عنه إشكاليات التحيز bias في باب المفاهيم والسلوك وتتسع الشقة في مضمون المفاهيم وآداب السلوك الإنساني وأخلاقياته الأدبية المتعارف عليها قبل التشويش والتحيز.

إن التقدم في المعرفة البشرية والتكنولوجيا والاقتصاد يعتمد إلى حدٍّ كبير على تبادل المعلومات و توثيقها. وتستخدم المفاهيم والمصطلحات التي ترمز إليها كأساس لتنظيم الأفكار العلمية وجميع المعلومات الأخرى. غير أن التطور السريع في وسائط التلقي الإعلامي والملتميديا في المعارف الإنسانية رافق صعوبة إيجاد مصطلحات كافية شافية. وفي ظل هيمنة العولمة والشركات الاستهلاكية عابرة القارات أدّى إلى ارتباك و اضطراب على المستويين الحضاري والفكري بين الأمم، وخاصّة أن تصنيف المفاهيم وطريقة التعبير عنها يختلفان من لغة إلى أخرى مما يؤدي إلى صعوبة في تبادل المعلومات ونموها أو تغييرها وفي وضع المصطلحات المقابلة لها. ومن هنا توسّعتْ الدراسات في علم المصطلحات. وإن أوضح ما يبدو على السطح هيمنة المفاهيم الغربية والحضارة الوافدة على مقومات شخصيات دول العالم الثالث وهو ما يعرف في الدراسات الحضارية بهيمنة المركزية الأوروبية Euro centricity وهو مصطلح يشير إلى الكيفية التي اصطبغ به الوعي الأوروبي لذاته إذ صار يرى أنه يحتل مركز الصدارة عبر التاريخ الحديث داخل بيئته الحضارية الخاصة وإشاعتها أو فرضهاً على الآخر. ولقد أدّى هذا الوضع إلى إشكاليات في التحيز الحضاري والبلبلة الفكرية لكثير من مضامين المصطلحات الاسلامية خاصة من مثل: الدين، الشرع، الاحتكار، اليسار، الإرهاب، التفاوض، التطرف، الأسرة، حركة تحرير المرأة Women's Liberation Movement الترشيد Rationalization و غيرها على نحو ما سنتوقف عنده في سياق البحث(٢).

والمعنى الحرفي ل(التحيز)Bias : (الإنحياز)؛ وفي السياق يُقال انحاز إليه وعنه أي انضم إليه موافقاً له في الرأي. وللتحيز في حضارتنا وجهان ، أحدهما حسي ويعني أن يحصر الشخص نفسه في حيز ومكان مُحاط بسور، وأما الوجه الآخر فهو المعنوي، بمعنى المناصرة والتبني فيقال فلان متحيز لفلان ، ولعلّ التحيز بمعناه المعنوي له الغلبة .

والبحث يستعرض أمثلة لأشكال التحيز الحضاري من خلال دلالة المصطلحات والألفاظ وشيوعها بتأثير الامتزاج بين الشعوب والأمم وما رافق قطار العولمة ووسائل الاتصالات والإعلام المعاصر مما أدى إلى التشويش والبلبلة وبشكل عام يمكن أن نشير إلى بعض مظاهر (التحيز)، ومنها :

١- الارتباط بين التحيز وبين الهوى، فإن كان التحيز للمطالبة بالواجبات ورد الحقوق لأهلها فهو ممدوح، أما إن تبع الهوى وانتفى الإيمان بالمطلق فلا يكون عندئذ قاعدة للحوار والنقاش، ويكون التحيز عندئذٍ مذموماً.

قال تعالى : ﴿ وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلاَّ تَعْدِلُواْ اعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُواْ اللّهَ إِنَّ اللّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾سورة المائدة:٨﴿

٢- هناك فارق بين الكلام و تصديقه، أي إدراك غرض المتكلم الحقيقي وفهمه في الوعي به، ومفارقة ذلك لمنطوق الكلام.

إن الكلام لفي اللسان

و إنما جُعل الفؤاد عليه دليلا

٣- و تبنّي الرأي والتحيز له مرتبط بوجود المطلق الذي ينسب له هذا الرأي، وهذا هو الذي يحدد الفرق بين التحيز و بين الرأي الموضوعي.

٤- التحيز أساسه ومنشؤه هو وجهة النظر الكلية عن الإنسان والكون والحياة، وما نسميه العقيدة، فالعربي المسلم يعرف ((العِلم)) بأنه الإدراك الجازم الثابت المطابق للواقع عن دليل، في حين لا تعني الكلمة عند الغربي سوى الجانب التجريبي فقط مع إهمال النقل أو الرواية (الوحي).

٥- اللغة عامل حاسم في التحيز و تقوم بدور فعال في ضبط المصطلح فخلافات في مفهوم أو مفاهيم مثل الإرهاب – التخلف - التعصب ترتبط بالإطار المرجعي لها وعلينا للخروج من دائرة التحيز نبذ التقليد وإدراك مرجعيتنا ومرجعية الآخرين التي تحسم مسألة التحيز.

قال لله تعالى:﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلاَ تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ

يُنِيبُ ﴾ الشورى:١٣﴿

وقال الله تعالى : ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعَةٍ مِنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ﴿الجاثية:١٨﴾

وقال تعالى : ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ ﴿المائدة:٤٨﴾

إن التحيز في المصطلح يرتبط بالصراع بين الحضارات ، فالحضارة الغربية تحتكر لنفسها مصطلح «العالمي international» فكل ماهو غربي عالمي وكأن العالم قاصر عليه ، ونتبنى نحن هذا المصطلح دون تساؤل عن المدلول الحقيقي له

ارتباط الدال بسياقه الحضاري الذي نشأ فيه ضمن حيز حقله الدلالي، بات محفوظاً بالتنازع مما أدى إلى شيوع ظاهرة التحيز، وهاك بعض الأمثلة:

- فكلمة ((الأُسرة)) في سياق غربي علماني لا تعني نفس المدلول لنفس الكلمة ((الأسرة)) في سياق عربي إسلامي إذ تختلف درجة التماسك ودفء العلاقات و مستوى المسؤوليات وحتى الوظائف واستمراريتها بالنسبة لعضو الأسرة.(٤)
- والمصطلح المستورد من حضارة لأخرى يحمل وجهة نظر صاحبه، حيث يضع نفسه في المركز ويرتب الأشياء حوله وفقاً لرؤيته، مثال ذلك مصطلح ((عصر النهضة)) فهو نهضة الإنسان الغربي فقط عندما خرج من أوروبا ليكتشف العالم من حوله في حين أن الأمر بالنسبة لبقية العالم كان مختلفاً فقد كان هناك حضارات أخرى في هذه البلاد المكتشفة!

كذلك مصطلح ((عالمي)) (الحرب العالمية – المغني العالمي – الرأي العام العالمي) فهو لا يعني في واقع الأمر سوى الغربي، الذي يفرض رأيه و يتناسى وجود الآخرين فيصبح العالم هو الغرب فقط .

المصطلح جزء من المنهج العلمي ، ولا يستقيم منهج إلاّ إذا قام على مصطلحات دقيقة تؤدي الحقائق العلمية أداءً صادقاً ، وقد قالوا (٥) : « المنهجية نصف المعرفة في عالمنا الحديث .. ووسيلة رائدة لمواجهة المدّ الحضاري الكوني الجارف الذي شملت مفاهيمه ومصطلحاته الإيجابية والسلبية كلَّ دانٍ وبعيد ، موفرةً في الثواني والساعات ، وأثناء الليل والنهار معطيات ومعلومات لم يسبق للإنسانية في تاريخها الطويل أن رأت مثيلاً لها ، كيفاً وكماً ».

وللمصطلح لغة خّاصة ، وهذه اللغة وثيقة الصلة بمسيرة العلم وتطبيقاته. والتِّقْنيَّة هي الأسلوب العملي لنظريات العلم ، أو هي كما عرّفها الدكتور بكر بن عبدالله بن بكر (٦): « .. هي المعرفة التي تقود إلى عملية تجميع عناصر الإنتاج وتنظيمها ثم تحويلها إلى سلع وخدمات مطلوبة لأمن ورخاء المجتمع بأقل تكلفة وأعلى جودة ممكنتين « . أقول إذا كانت التقنية بهذا المفهوم فإنها بالتالي ستولِّد معانٍ جديدة في حياة الإنسان يحتاج إلى أن يعبّر عنها لأن اللغة وسيلة لتحقيق التواصل والتبليغ بين الناس.

وإذا جاز لنا أن نقول إن لغة الإعلام والفضائيات ، هي آية من آيات هذا العصر . فإن لغة المصطلح وعلومه قد بدأت تأخذ مكانها في الدراسات اللغوية المعاصرة . يقول الدكتور علي القاسمي الخبير اللغوي في مركز تنسيق التعريب في مقالة له بعنوان (المصطلحية . علم المصطلحات) (٧) : « إن التقدم في المعرفة البشرية والتكنولوجيا والاقتصاد يعتمد إلى حدٍّ كبير على تبادل المعلومات وتوثيقها . وتستخدم المفاهيم والمصطلحات التي ترمز إليها كأساس لتنظيم الأفكار العلمية وجميع المعلومات الأخرى.» غير أن التطور السريع في المعارف الإنسانية رافق صعوبة إيجاد مصطلحات كافية شافية. وفي ظل هيمنة العولمة و الشركات الاستهلاكية عابرة القارات أدّى إلى ارتباك واضطراب على المستويين الحضاري و الفكري بين الأمم، وخاصّة أن تصنيف المفاهيم وطريقة التعبير عنها يختلفان من لغة إلى أخرى مما يؤدي إلى صعوبة في تبادل المعلومات ونموّها أو تغييرها وفي وضع المصطلحات المقابلة لها . ومن هنا توسَّعتْ الدراسات في علم المصطلحات، و إن أوضح ما يبدو على السطح هيمنة المفاهيم الغربية والحضارة الوافدة على مقومات شخصيات دول العالم الثالث و هو ما يعرف في الدراسات الحضارية بهيمنة

المركزية الأوروبية Euro centricity و هو مصطلح يشير إلى الكيفية التي اصطبغ به الوعي الأوروبي لذاته إذ صار يرى أنه يحتل مركز الصدارة عبر التاريخ الحديث داخل بيئته الحضارية الخاصة وإشاعتها أو فرضها على الآخر. و لقد أدّى هذا الوضع إلى اشكاليات في التحيز الحضاري والبلبلة الفكرية لكثير من مضامين المصطلحات الاسلامية خاصَة من مثل: الدين، الشرع، الاحتكار، اليسار، الإرهاب، التفاوض، التطرف، الأسرة، حركة تحرير المرأة Women's Liberation Movement الترشيد Rationalization و غيرها على نحوها سنتوقف عنده فيما هو آت(٨).

هل هناك نظرية عامة معاصرة لعلم المصطلح ؟

قوام النظرية العامة لعلم المصطلح مجموعة المبادئ العامة التي تحكم وضع المصطلحات طبقاً للعلاقات القائمة بين المفاهيم العلمية ، وكيفية معالجة المشكلات المشتركة بين جميع اللغات تقريباً في حقول المعرفة كافة .

ومن أهم موضوعات البحث في النظرية العامة لعلم المصطلح هي:

- طبيعة المفاهيم(٩).
- تكوين المفاهيم وخصائصها الحضارية واللغوية والعلاقة بينها .
- طبيعة العلاقة بين المفهوم والشئ المخصوص في إطار التصور عن الخالق والكون والإنسان(١٠).
- تعريفات المفهوم، ومرجعية تكوينه العقدية.
- كيفية تخصيص المصطلح للمفهوم والعكس بالعكس.
- طبيعة المصطلحات ووضعها ، وتحاشي اسقاطها من حضارة وافدة على أخرى (أي التحيز في المصطلح) إنَ (التحيز في المصطلح) مسألة مرتبطة بقضية تحديد الأنا والذات، وبالموقف من الآخر ، وبالدوائر الحضارية ، وبتفاعل الحضارات.
- البيئة الحضارية للمصطلح ودواعي نشأته

المقصود في هذا المنعطف من البحث ضرورة المزاوجة بين المادة التراثية والمعاصرة . والنظر إلى المضمون الحضاري دفعاً للمغالطة والتشويش والتحيز bias ، ولتوضيح ذلك نتوقف عند بعض المصطلحات تعزيزاً إلى ما نذهب إليه، ونعمد إلى بعض دراسات المعهد العالمي للفكر الاسلامي، المجموع في سياق ما له صلة بما نهدف إليه هذه الندوة كما سبقت للإشارة إليها؛

ونتوقف عن بعض المصطلحات لبيان ظاهرة التحيز Bias؛ فنقول:

• أولاً : مصطلح (الشريعة والشارع) :

مصطلح «الشارع» يُوصف به مَنْ «يُشَرِّع» القانون فرداً كان أو جماعة (مؤسسة) فواضع القانون «شارع» و «مُشّرع» له.. و المجالس النيابية التي تمثل سلطات الأمة في «تشريع» القوانين هي «هيئات تشريعية» تشرع القوانين.

«فالشارع» - هنا – و «مصدر التشريع» و «واضع الشريعة» هو إنسان فرداً كان أو هيئة تشريعية.

ونقول :

إن ابن الحضارة الغربية – الذي لا يؤمن بوجود شريعة إلهية تنظم الجانب المدني و الاجتماعي و الاقتصادي والسياسي للدولة والاجتماع البشري والعمران الإنساني – يؤمن بأن الإنسان، فرداً كان أو طبقة أو أمّة، هو المصدر الأول والأخير للشريعة والتشريع . . فالإنسان هو «الشارع» سواء أكان ذلك في إطار أصول الشريعة من قواعد ومبادئ القانون الطبيعي، كما تسمى في الحضارة الغربية – والتي هي تحسين وتقبيح عقليين. أي فعل إنساني خالص، بمقاييس إنسانية خالصة من أية ضوابط – أو كان ذلك في إطار فروع الشريعة: القانون.

فهذا المصطلح «الشارع» بهذا المعنى طبيعي وصادق في هذا الإطار: إطار الحضارة التي لا تؤمن بوجود «شارع» غير هذا الإنسان، وخارج هذا «الواقع المادي» . . سواء أكان السبب في ذلك هو الطابع المادي الإلحادي لهذه الحضارة، أم المنحى والتوجه العلماني الذي يرفض وجود مدخل لـ«الإلهي» في شؤون «الدولة و الاجتماع و العمران».

ولما كان هذا الموقف هو «شأن غربي»» خالص و سمة خاصة من سمات الحضارة الغربية، وطابعها المادي و مذهبها العلماني، فإنه ليس من المشترك الإنساني العام . .

ففي الحضارة الإسلامية التي مثّلتْ العقيدة الإسلامية، وتمثل

أيديولوجيتها ومذهبية أمتها منذ أن أصبحت الروح السارية في كل علوم تمدنها المدني وإبداعها الإنساني في الحضارة بما فيه من معرفة و سياسة واجتماع واقتصاد ودولة وعمران. في هذه الحضارة الإسلامية، يدل مصطلح «الشارع» على واضع أصول الشريعة،

ويختص به . . وهذه الأصول ليست إبداعاً إنسانياً – كالقانون الطبيعي في الحضارة الغربية – و إنما هي « وضع إلهي» نزل به الوحي، ديناً يتدين به إنسان هذه الحضارة . ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ﴾سورة الشورى: ١٣﴾

و لما كانت هذه الشريعة الإلهية هي خاتمة الشرائع الإلهية لبنى الإنسان فلقد وقف «شارعها» – اللّه سبحانه وتعالى – فيها وبها عند الأصول و المبادئ و القواعد التي حددت النهج فيما هو متغير ومنظور من شؤون الدنيا، مع التفصيل لما هو ديني، أو ما هو من الثوابت الدنيوية التي لا يلحقها تطور أو تغيير . . (فالشارع) للشريعة هو اللّه

ومن ثم فإن إنسان هذه الحضارة الإسلامية لا يستطيع – وهو مؤمن بدينه – أن يعطي سلطة التشريع ووصف «الشارع» لغير اللّه . . أما إبداع هذا الإنسان المسلم في القانون الإسلامي و سنّه القوانين التي تفرّع عن أصول الشريعة، وتواكب المستحدثات والمتغيرات، و تستجيب لكل ما لم تعرض له النصوص والحدود والأصول الإلهية . . أما كل هذا الإبداع القانون الإسلامي في الفروع والمتغيرات فهو «الفقه» . . فقه المعاملات . . ومن هنا كان تميز «الفقه» عن «الشريعة» في الحضارة الإسلامية، وكان اللّه هو «الشارع» لا الإنسان الذي هو «الفقيه» و ليس اللّه! (١١)

• ثانياً: مصطلح (اليسار(و (أهل اليسار):

«اليسار» في العربية لغة أمتنا وتراثنا وديننا وحضارتنا و أداة إبداعنا إنما يعني اليسر المقابل للعسر والغنى المقابل للفقر والإعسار – ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾سورة البقرة: ١٨٥﴿ وَإِنْ كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَى مَيْسَرَةٍ ﴾سورة البقرة: ٢٨٠﴾ . . و من ثم فإن «أهل اليسار» والاتجاه الفكري والاجتماعي لأهل اليسار – في اصطلاح العربية – هم أهل الغنى لا الفقر – واتجاه اليسر – لا البؤس؟! . . فكيف تعجز لغتنا على أن يقبل جسمها الاصطلاحي هذا الضد.

إن بعض علمائنا و أئمة عصرنا – مثل الإمام عبد الحميد بن باديس (١٣٠٥-١٣٥٩ هـ، ١٨٨٧- ١٩٤٠ م). كان يدعو اللّه فيقول : «اللهم اجعلني في الدنيا من أهل اليسار و في الآخرة من أهل اليمين»؟! . . فاليسار هو: غنى الدنيا . . كما أن أهل اليمين هم أهل السعادة الذين أقاموا العدل في الدنيا، فاستحقوا أن يتناولوا كتاب أعمالهم العادلة باليمين و بالقوة في يوم الدين . . وذلك هو منطق العربية الحاكم، و الذي لا سبيل إلى الفكاك منه، بدعوى التعميم لعبارة «إنه لا مشاحة في الألفاظ و المصطلحات»(١٢)

ثالثاً: مصطلح (الاحتكار) ؛ وهو عند الغرب آلية وسائل السوق:

سبيلُ تطور الامتلاك لأدوات الإنتاج . . فالاحتكار – في هذه النظرة الغربية – هو نبت طبيعي، حتمي . . حتى وإن رآه البعض ضاراً . . !

أما في المذهبية الاقتصادية الإسلاميّة، التي حكمت و تحكم حيازة الإنسان للمال ببنود عقد وعهد استخلاف اللّه – المالك الحقيق للمال – للإنسان في هذا المال . . فإن الاحتكار ممنوع، ومرفوض من الأصل والأساس. ومحال أن يتّسق وجوده – فضلاً عن سيادته – مع مذهبية الإسلام في الأموال . . «من احتكر للمسلمين طعاماً ضربة اللّه بفقر و إفلاس» كما يقول الحديث النبوي الشريف – وذلك وعيد للمجتمع و الحضارة التي تبيح الاحتكار – الذي يقودها إلى فقر الأمة) وإفلاس نظامها، وعجزه عن تحقيق الغاية من تحضر الإنسان! و هذا الاحتكار الذي يقتل الأُمة عندما يُغتال العدل في حياتها الاقتصادية والاجتماعية وهو الذي يتحدث الرسول صلى اللّه عليه و سلم عن أهله فيقول: يحشر الحكارون و قتلة النفس في درجة واحدة؟! كما يقطع بأنه «لا يحتكر إلا خاطئ»!.

فالمشاحة هنا في «الاحتكار» قائمة بين العربية لسان الإسلام وبين الحضارة الغربية في «مشروعية» النظام الذي يعبر عنه مصطلح «الاحتكار» . . و أيضاً قائمة في معناه ، وفي آفاق هذا المعنى؛ لأن الحضارة الغربية تقصر «الاحتكار» على مرحلة من مراحل النمو و تركيز ملكية أدوات الإنتاج ووسائله أو المصالح التجارية والمصرفية في أيدي قليلة من الملاك.

أما في المذهبية الاقتصادية الإسلامية فإنه تحريم يشمل أبسط ألوان الاحتكار فجمع الطعام انتظاراً لغلاء سعره مدة من الزمن هو احتكار محرم في عُرف الإسلام. كما يقول الحديث النبوي الشريف «بئس العبد المحتكر إن أرخص الله الأسعار حزن، و إن أغلاها فرح إن سمع برخص ساءَه وإن سمع بغلاء فرح، ذلك أن الجالب مرزوق و المحتكر ملعون» كما قال عليه الصلاة و السلام.

• رابعاً: مصطلح (مذهب إنساني):

وإذا كان القارئ والمثقف المسلم لا يثير ريبته أن يقرأ مصطلح «المذهب الإنساني» تعبيراً عن النسق الفكري الذي يعطي للإنسان مرجعية معتبرة في أفكار هذا النسق . . فإن ريبته لا بد أن تثور إذا هو عرف مضمون هذا المصطلح في فكر المذاهب الوضعية الغربية . . وفي قواميسها . . .

فالمذهب الإنساني Humanism – في الفكر الوضعي الغربي – هو المرجعية المقابلة و المناقضة للمرجعية الإلهية والدينية . . والمذهبية البشرية المقابلة والمناقضة للمقدس الديني . . حدث ذلك بسبب ملابسات النهضة الأوروبية والإحياء الغربي، عندما رفض روادهما لاهوت الكنيسة، وما اصطبغ بصبغته من أدب وفلسفة وعلم وفن . . ودعوا إلى تحرير العقل من هذه المرجعية الدينية المقدسة . . مستبدلين بها «الإنسانيات» وهي – في واقعهم – كانت اللغات و الآداب والثقافة اليونانية واللاتينية.

لقد قام التناقض – في واقعهم – أو أقاموا – بين «الديني» و «الإنساني» فرفضوا الديني، وأحلوا الإنساني – اليوناني اللاتيني - محله، و شيدوا عليه مذاهب و نظريات النهضة الغربية الحديثة . . وجرت قواميسهم على الحديث عن هذا الذي لديهم كمضمون لمصطلح « المذهب الإنساني»!

فهل نقدم هذا المضمون زاداً وطعاماً – ولا نقول طعماً – لأبناء الحضارة الإسلامية الذين لم يعرف دينهم – ولاعلومه – ولم تعرف حضارتهم – ولا علومها – هذا الفصام النكد بين «الإلهي – المقدس» وبين «الإنساني» . . لأن الإنسان – في عقيدتها وتصوراتها – هو خليفة عن الله، محكومة رسالته في إعمار الأرض بشريعة عهد وعقد الاستخلاف ؟! . . هل نقدم للعقل المسلم هذا الطعم « الغريب – والمنكر» بحجة أنه لا مشاحة في الألفاظ و المصطلحات؟!

إن وحدة المصطلح – الأداة – الوعاء لا تعني القبول للمضمون الغربي . . فالمشاحة أكيدة و شديدة في هذا المقام.

و إذا كانت هذه الأمثلة – وهي مجرد أمثلة – بل إنها قطرة من بحرلجي – كافية للبرهنة على مشروعية – بل ووجوب – «المشاحة» في كثير من المصطلحات والألفاظ عندما تتميز أو تتباين المذاهب الاعتقادية، والأنساق المعرفية، والطبائع الحضارية . . فإن هذه الحقيقة تقودنا إلى إشارات لا بد منها . . في هذا المقام – للرسالة الحضارية للقاموس المنشود، الذي تتعدى عروبته حروف اللغة إلى حيث «المضمون المتميز لحضارة الإسلام» . .

إن عاقلاً من العقلاء لا ينكر الآثار و البصمات التي أحدثتها المؤثرات الفكرية الغربية في عقل أمتنا – على امتداد وطن العروبة وعالم الإسلام خلال القرنين الماضيين، اللذين هما عمر الغزوة الاستعمارية الغربية الحديثة، والهيمنة الحضارية الغربية على بلادنا و أمتنا وما ماثلها من البلاد و الأمم التي طالتها هذه الغزوة وهذه الهيمنة الحضارية.

إن عاقلاً من العقلاء لا ينكر أن «القاموس» في أي فن من الفنون أو علم من العلوم – قد غدا في واقعنا الفكري أداة شديدة الفعل والتأثير في تلوين الفكر والمذهب والرؤية والهوية، ومن ثم تلوين الاتجاه الحضاري لمن يستخدم هذا القاموس بالفلسفة الحضارية لواضعيه و منشئيه.

فالباحث والقارئ الذي يريد معرفة مضمون مصطلح من المصطلحات فيمد يده إلى القاموس باحثاً عن هذا المضمون إنما يزرع في

عقله ووجدانه بذرة فكرية تنمو، فتلون مساحة من عقله ووجدانه بالصبغة الحضارية التي حكمت لون ومذهب مضامين مصطلحات هذا القاموس.

فإذا كان هذا القاموس – كأغلب قواميس العلوم والفنون في ثقافتنا المعاصرة – هي بضاعة غربية تُرجمت و عُربت؛ أدركنا دور القاموس – في مكتبتنا المعاصرة – في احتلال العقل العربي و المسلم، وفي تلوينه بلون الحضارة الغربية، وإسهامه في «تغريب» هذا العقل، و خاصة في ميدان العلوم الإنسانية التي تتمايز فيها الحضارات، و من ثم تتمايز فيها مضامين الكثير من مصطلحات هذه العلوم والفنون على النحو الذي ضربنا له بعض الأمثال.

إن الباحث في الميدان الاقتصادي مثلاً – وذلك القارئ في هذا الميدان، والذي لا يجد لديه سوى قاموس «غربي» قد «ترجم إلى العربية» لا بد أن يرى كل قضايا هذا العلم الاقتصادي، و تطبيقاته، بعيون المذهبية الاقتصادية الغربية، والتي تتميز عنها المذهبية الإسلامية في المنطلقات والمعايير والغايات على نحو كبير وأكيد.

كذلك فإن هذا الباحث، وهذا القارئ لن يستطيع فهم تراثنا الاقتصادي – النظري منه كما صيغ في كتب الأموال والخراج والكسب والتجارة والأسواق والحسبة . . إلخ . . إلخ . . أو التطبيقي منه كما عرفته المسيرة الحضارية لأمتنا . . لن يستطيع هذا الباحث وهذا القارئ فهم تراثنا هذا بواسطة القاموس ذي المنطلقات و المفاهيم الغربية بحال من الإحوال . . فإنزال المفاهيم الغربية على المصطلحات الاقتصادية الإسلامية هو لون من « خداع الرؤية» يستوي في «الجهل بالحقيقة» مع «انعدام الرؤية» على نحو كلي، من حيث الإفضاء إلى عزل العقل الاقتصادي عن تراثه الحضاري في هذا الميدان.

و هنا تبرز الرسالة الفكرية والمهمة الحضارية للمصطلح والقاموس . فهو الأداة الطبيعية لرؤية وفهم وتفسير تراث أمتنا – إنْ في الفكر النظري منه، أو في التطبيقات التي مثلت واقع الأمة و تجربتها لهذا الميدان – ففيه المعاني المنضبطة لمصطلحات «الفكرة» و «لواقع الحياة».

وهو السبيل إلى وضع لبنة في صرح الاستقلال الحضاري لأمتنا عندما ييسر للعقل العربي والمسلم سبل إدراك ما لحضرتنا من «خصوصية» في المعاني و المضامين و المفاهيم . . فيسهم بذلك في تحرير العقل من إسار التبعية و أسر التغريب.

وهو خطوة على طريق طويل هو طريق الاستقلال الحضاري الذي هو جوهر الاستقلال!

• خامساً (الإرهاب) و(التفاوض) ؛

وخطورة قضية المصطلحات تبرز على صعيد صراعنا مع الاستعمار الغربي و الصهيونية العنصرية، حيث عمل كلاهما على نحت مصطلحاتهما الخاصة بهما، ثم تعميمها في الساحة الدولية، موظفين في ذلك سيطرتهما على وسائل الإعلام.

و لنقف أمام مصطلح «الإرهاب» فنجده يستخدم لوصف أية مقاومة مسلحة للعدوان المسلح الغاشم الذي يقوم به المستعمر الغربي. و بديهي أن أصحاب هذا الفكر الاستعماري لا يصفون عدوان حكوماتهم بأنه إرهاب. لا ولا إنه عدوان، بل أنهم يضفون عليه صبغة «تمدنّية» أو «حضاريّة» أو «دفاعية» أو «أمنية»، وهم يعبرون عن فرحهم بنجاح هذا العدوان بأشكال مختلفة، وَيُعِدُّون قياداته أبطالاً يكرمون، والجرائم التي اقترفوها بطولات تجري الإشادة بها. فإذا ما مارس الشعب المعتدى عليه حق المقاومة واستخدم السلاح دفاعاً عن نفسه وذوداً عن أرضه وماله وعرضه انطلق هذا الفكر الاستعماري يصف هذه المقاومة بأنها إرهاب، ويتفنن في إلصاق أبشع النعوذ بها و بأبطالها.

وما أكثر الأمثلة الصارخة على ذلك بدءاً من الغزو الفرنسي لمصر وفلسطين والبطل سليمان الحلبي الذي كان واحداً ممن قاوموه. . مروراً بحملات الغزو الأوروبي لوطننا والأبطال الذين تصدوا لها، ووصولاً إلى الثورة الفلسطينية وهي تقاوم الغزوة الصهيونية.

و نقف أمام مصطلح « التفاوض» فنجد الفكر الاستعماري الغربي يستخدمه ليطرحه بديلاً للمقاومة المسلحة التي يسميها إرهاباً، ولذلك فإنه يضع شرطاً له هو الامتناع عن المقاومة المسلحة أو على حدٍّ تعبيره «الامتناع عن كلِّ أشكال العنف» –

كما يشترط لحدوثه أن يكون له في هذا التفاوض اليد العليا ليمارسه من موقع القوة المطلقة، ويحرص على أن يقيد مجاله تقييداً محكماً، ثم يضع شرطاً آخر له وهو ألا يطلب المفاوض الآخر المُعتدى عليه شيئاً؛ لأن ذلك يعني تفويضاً بشروط، وهو لا يقبل «التفاوض بشروط مسبقة»، وهكذا يصبح مفهوم «التفاوض» في هذا الفكر الاستعماري الغربي عملية إذعان الطرف الآخر و استسلامه و تسليمه بكلِّ أمريعُرض عليه؛ إذ لا خيار آخر أمامه.

• سادساً :قوى التطرف :

نصل إلى مصطلح «قُوى التطرف» الذي يستخدمه الفكر الغربي الاستعماري ليصف به أولئك الذي يمارسون حقهم في مقاومة العدوان بالكفاح المسلح، كما يطرحون مفهوم السلام القائم على العدل، ولكنهم في نظر الغرب متطرفون.. والغرب يطرح مصطلح قوى الاعتدال «بحثاً عن آخرين» وقد يطلقه فعلاً على بعض من باب التمني ومن باب الإيحاء. ويعني به أولئك الذين يقبلون أن «يأخذوا معه ويعطوا». ويحاوروا، وكم تكون فجيعته حين لا يجد من ينطبق عليه هذا النعت بهذا المفهوم.

ولنا أن نعود إلى جميع البيانات التي صدرت عن الولايات المتحدة الأمريكية وبعض الدول الأوروبية الغربية لنرى فيها أمثلة لا تحصى لهذه المصطلحات وكلها تعبر عن هذا الفكر.

الأمر الآخر الذي لا نقف أمامه هو ازدواجية المقاييس في تطبيق المبادئ وواضح أن الأمر الأول الخاص بالمصطلحات تجسيد له.

يُكثر هذا الفكر الغربي الاستعماري من الحديث عن المبادئ، و يَتَفَنَّنُ في التغزل بها و الفخر بأن مجتمعه يقوم عليها. ويسهب في شرح مسيرة إرساء هذه المبادئ و المعارك التي خاضها الأحرار لنصرتها، ويشير بخاصة إلى وثيقة حقوق الإنسان التي جاءت تتويجاً لما سبقها. كما يشير كل بلد غربي إلى وثيقة خاصة به حفظها تاريخه. ولكن ما أنْ يبرز أمر تطبيق هذه المبادئ على مجتمعات أخرى يتسلط عليها الغرب حتى يكون لهذا الفكر الغربي الاستعماري شأن آخر مع المبادئ نفسها.

إنه في هذه الحالة يتحدث عن «الاعتبارات العملية» و ينحت تعبيرات يجهد في نحتها ليلف و يدور، فبدلاً عن حق تقرير المصير مثلاً يجري الحديث عن الحكم الذاتي، أو الحديث عن «المشاركة في تقرير المستقبل»، أو الحديث عن «تحسين نوعية المعيشة» — و يتضاءل صوت المبادئ ليرتفع صوت «الواقعية» و تستخدم لغة المصالح.

واضح هنا أن هذا الفكر الغربي الاستعماري يقيس بمقياسيْن، و يكيل بكيلين، وهو في كل الأحوال يعامل معاملة «المطففين﴿الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ﴾ ﴿سورة المطففين : ٢،٣﴾، وقد عانت الشعوب المستعمرة ويلات من أبشع نماذج المطففين.

نذكر هنا أن غوستاف لوبون عالم الاجتماع الفرنسي حين درس المجتمع البريطاني لاحظ ازدواج المقاييس، و كيف أن الفارق كبير بين ممارسة البريطاني في مجتمعه و ممارسته في المستعمرات للمبادئ التي تعلّمه إيّاها التربية الانكلوسكسونية. و تفسير ذلك هو أن النظرة التي حكمت هذه التربية هي نظرة «محلية» وليست «عالمية»، والمثل الأعلى خاص بالمجتمع البريطاني وليس بالعالمين.

إن المعاناة التي عانتها الشعوب المستعمرة بسبب هذا الأمر تفوق الوصف وهي ما زالت مستمرة. و كلما تابعت السياسة الأمريكية تجاه حقوق شعب فلسطين رأيت المثل الصارخ لازدواج المقاييس في تطبيق المبادئ.

وبعد فإن مِنْ ومن متطلبات انتصارنا في صراع النَفَسِ الطويل الذي نخوضه ضد الصهيونية العنصرية التمسك باستخدام المصطلحات التي تعبِّرُ عن منظورنا وحقوقنا وتوجهاتنا، ورفض مصطلحات العدو التي تعبر عن منظوره، وأطماعه، وتقلب الحقائق رأساً على عقب.

ينبغي أن نتحدث عن فلسطين حين نعرض لأي موضوع يتعلق بالمكان، و نتحدث عن الضفة الغربية وقطاع غزة والجليل والنقب والمثلث وسهل يافا ومرج بني عامر، ونرفض أي حديث عن «أرض إسرائيل» ويهودا والسامرا، ونرفض استخدام مصطلح جبال جلعاد الذي يستخدمه العدو بدلا من جبال عجلون، ونرفض استخدام مصطلح أورشليم الذي يطرحه بدلا من بيت المقدس، أو مصطلح حبرون الذي يستخدمه بدلا من الخليل.

ينبغي أن نتمسك بالحديث عن شعب فلسطين العربي حين نتحدث عن سكان تلك الأرض الغالية ونرفض أي حديث عن «السكان» أو «سكان أراضي» أو حتى سكان الضفة و القطاع كله سكان يهودا والسامرا. وفرق كبير بين مدلول مصطلح «الشعب» وبين مصطلح السكان، فالشعب له حقوق في وطنه ومصطلح السكان يحاول طارحوه أن يلتفوا به على تلك الحقوق.

ينبغي أن نبرز مصطلح «مقاومة الاحتلال» وندين كل محاولة لإلصاق تهمة «الإرهاب» بمن يقاوم، و ما أكبر الفرق بين المقاومة والإرهاب.

هل يجوز لنا أنْ ننساق إلى استخدام مصطلح «العمليات الانتحارية» الذي يصف به العدو «عمليات الاستشهاد» البطولية؟ و نحن الذين نؤمن بأن الاستشهاد حياة، و بأن الانتحار حرام.

وأخيراً مصطلح (أسرة) ؛

فعندما نستخدم كلمة «الأسرة» في سياق غربي علماني حديث فإننا سنجد أن مدلولها مختلف عن كلمة «أسرة» في سياق عربي إسلامي تقليدي، فدرجة التماسك بين أعضاء الأسرة في السياق الأول مختلفة عنها في السياق الثاني، ولا بد أنَّ تضامن أعضاء الأسرة في المجتمع الأول التعاقدي التناحري يختلف عن تضامن أعضاء الأسرة في المجتمع التراحمي الذي تسوده المودة. ومسؤولية الأبوين في المجتمع التعاقدي تختلف عنها تمامًا عن مسؤوليتهما في المجتمع التراحمي، ففي المجتمع الأول تنتهي تمامًا المسؤولية العاطفية والأخلاقية عند بلوغ الطفل السادس عشرة، وتنتهي المسؤولية الإقتصادية بعد ذلك ببضع سنين. وحتى بعد ظهور الأسرة النووية في المجتمعات الإسلامية نجد أن علاقتها لا تزال قوية بالأسرة الممتدة، و تظل مسؤولية الأبوين قائمة رغم بلوغ أطفالهما سن الأربعين أو ما يزيد وهكذا. و بالتالي فاستخدم نفس المصطلح للإشارة لظاهرتين مختلفتين هو نوع من أنواع التحيز لإحدى الظاهرتين على حساب الأخرى، و لعله كان من الأفضل استخدام دالين بدلاً من واحد، أو استخدام دال واحد مع توضيح الاختلافات في المدلول.

الهـوامش

(١) لمزيد من التوسع حول هذه المسألة أقرأ :

أ ـ الرازي ، أبو حاتم أحمد بن حمدان (ت ٣٢٢هـ) ، كتاب الزينة في الكلمات الإسلامية العربية ، تحقيق حسين الهمداني ، ط القاهرة ١٩٧٥م).

ب ـ إبراهيم أنيس ـ دلالة الألفاظ ، القاهرة (عدة طبعات)

ج ـ حامد صادق قنيبي ـ التطور الدلالي (في لغة الفقهاء) ، بحث منشور في مجلة (اللسان العربي) ، مكتب تنسيق التعريب بالرباط ، عدد ٢٤/١٩٨٤م . + معجم الفقهاء

(٢) راجع كتاب (نقد أدبي حديث : مفاهيم ومصطلحات وأعلام، ص١٩٣. حامد قنيبي، كنوز المعرفة ٢٠١٢).

(٣) راجع كتاب (إشكالية التحيُز رؤية معرفية ودعوة للاجتهاد :محوري مشكلة المصطلح والأدب والنقد تحرير المسيري ، أماكن متفرقة. المعهد العالمي للفكر الإسلامي ١٩٩٨م)،وكتاب علم الدلالة والمصطلح ،قنيبي ١٠٥.

(٤) راجع : بحث الأسرة والدولة ؛ هبة رؤوف عزت ، المرجع السابق ص٣٤

(٥) الحمزاوي ، محمد رشاد . المنهجية العامة لترجمة المصطلحات وتوحيدها وتنميطها (الميدان العربي) . دار الغرب الإسلامي ، بيروت ط ١ ، ١٩٨٦ ، ص ٩ (فيما بعد : الحمزاوي ، المنهجية).

(٦) ابن بكر ، بكر عبدالله . استحواذ التكنلوجيا . دراسة اعداها معالي الدكتور بكر بن عبدالله بن بكر مدير جامعة الملك فهد للبترول والمعادن . ١٩٨٦م .

(٧) مجلة اللسان العربي (مجلد ١٨ ، ج١ ، سنة ١٩٨٠) . مكتب تنسيق التعريب بالرباط . المصطلحية (علم المصطلحات) :النظرية العامة لوضع المصطلحات وتوحيدها وتوثيقها ، ص ص ٧ ـ ١٨.

(ثلاثي اللغات) دار النفائس / بيروت ١٩٩٣

(٨) لمزيد من التوسع في هذه الأفكار طالع المراجع التالية:

- ×××إشكالية التحيُز رؤية معرفية ودعوة الاجتهاد :محوري مشكلة المصطلح والأدب والنقد تحرير المسيري ، أماكن متفرقة.

المعهد العالمي للفكر الإسلامي ١٩٩٨م)،وكتاب علم الدلالة والمصطلح ،قنيبي ٢٠٠٥

- حامد صادق قنيبي ، علم الدلالة والمصطلح (مرجع سابق).
- حامد صادق قنيبي ،النقد الأدبي
- إشكالية التحيز محور : العلوم الاجتماعية
- إشكالية التحيز محوري : مشكلة المصطلح ، الأدب والنقد .
- بناء المفاهيم دراسة معرفية ونماذج تطبيقية .

(٩) اللغة العربية لغة العلوم والتقنية ، ص ١١٩ ، طبعة دار الاصلاح بالدمام ، ١٩٨٣(فيما بعد : شاهين : العربية).

(١٠) مجمع اللغة العربية بالقاهرة ، ط ١ ، ١٩٨٠م ، وقابل بمعجم اللغة العربية المعاصرة المكتوبة ، ط٣ ، لهانزفير وملتون كوان . مكتبة لبنان ، بيروت ١٩٧٤م.

(١١) اللسان العربي ، مجلد ١٨.(رجع سابق)

(١٢) المرجع السابق .